في الجزائر يتكلم السلاح

المأساة والآمال

أد. إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

" في الجزائر يتكلم السلاح نضال شعب من أجل التحرير" اسم كتاب لمؤلفته " إيفه بريستير " ترجمة عبد الله ف كحيل وطبع المؤسسة الجزائرية للطباعة سنة 1989، ومؤلفته صحفية المانية من المانيا الشرقية سابقا، يبدو أنها كانت مشبعة بالأفكار الشيوعية الاشتراكية، وعلى الخصوص بنضال العمال. زارت مخيمات اللاجئين الجزائريين على الحدود التونسية حلال عام 1958، والتقت بالعديد منهم ومن الجنود الجزائريين وقادتهم، ورجعت إلى العديد من المصادر لاسيما الصحافة الفرنسية، ثم أصدرت كتابها المذكور أعلاه بالألمانية عام 1959، وكان الهدف من عملها هذا هو إطلاع الرأي العام الأوربي عموما والغربي خصوصا، والعالم كله على الأوضاع في الجزائر، وما ترتكبه جيوش فرنسا من جرائم إنسانية يندى لها الجبين.

يعد كتاب هذه الصُحفية الألمانية شهادة حية على بشاعة الجرائم التي ارتكبها ا فرنسا وجيشها ومستدمريها في الجزائر،كما يعد وثيقة تاريخية هامة لأن الكاتبة وثقت دراستها من خلال ما شاهدته بنفسها، وبالرجوع إلى وثائق هامة كالقوانين والمراسيم والتصريحات الفرنسية إبان فترة الاحتلال، واللقاءات التي أجرتها مع الفاعلين في الميدان .

وقد قسمت الكتاب إلى 22 بابا كل باب بمثابة قصة حقيقية مأسوية تحمل في طياتها آمال شعب أمن بأن استخدام السلاح وحده هو الأقوى في افتكاك حريته، واستعادة كرامته، فالعنف يجب أن يقابل بالعنف لتحقيق الحرية والعدالة سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا وهو ما نقلته على لسان اللاجئين والمجاهدين الذين التقت بهم، وكمسلمين انطلقوا من إيمانهم وعقيدتهم المعبر عنها في القرآن الكريم قال تعالى" وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِين "[1]، وقوله : " وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُون "[2].

ويبدو أن الإعلامية الألمانية إيفه كان هدفها الاطلاع على حقيقة الثورة الجزائرية، وعلى الأوضاع الاجتماعية لشعب الجزائري من خلال اللاجئين، ونقل صورة حقيقية بعد التشويه المتعمد والتعتيم المقصود الذي طبقته فرنسا وجارتْها في ذلك وسائل الإعلام الغربي، لا سيما أن وأن حكومات الغرب كانت تساند فرنسا أو تتعمد السكوت عما ترتكبه من جرائم في الجزائر، وكذا المؤسسات الإنسانية

---

[1]- **البقرة** ، 251.
[2]- **الأنفال**، 60 .

التي لها عليها نفوذ كبير، وقد كانت جريمة ساقية سيدي يوسف في 8 فيري 1958[1] أحد القنوات الكبرى التي أوصلت حقيقة الثورة الجزائرية وفضحت حرب فرنسا في الجزائر إلى شعوب العالم لاسيما الغربي، وبعد أيضا " أن كشفت الصور والأفلام جثث الفلاحين في أكواخهم المدمرة، وأجسام الأطفال التي مزقتها رصاصات الطائرات في المدرسة "[2] لاسيما وأن العالم سمع بهذه الجريمة عن طريق شهود عيان من رجال الصليب الأحمر الدولي[3] الذين كانوا أوصلوا للتو مساعداتهم عندما بدأ الهجوم، ولم يستطيع الفرنسيون تكذيب الخبر رغم أنهم يكذبون دائما، فهيئة أركان الجيش الفرنسي تكذب هذه الأخبار وتقول أنها من دعايات الفلاقة[4]، وحاولت الكاتبة إيجاد تفسير لبقاء اللاجئين بالقرب من الحدود الجزائرية رغم ظروف الحرب الصعبة فإن الجزائريين لا يريدون الابتعاد عن وطنهم فرؤيتهم لجزء منه ولو على بعد، وفي خضم الحرب أهون عندهم من الابتعاد عنه[5].

---

[1]- مراجعها كثيرة منها **جريدة المجاهد** اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني الجزائريفي العدد 18 الصادر بتاريخ 15 فيفري 1958 أي بعد تقريبا أسبوع من مجزرة ساقية سيدي يوسف التونسية ، والجريدة هي أسبوعية وقد كتب في صفحتها الأولى عنوانا معبرا يحمل آمال المستقبل :" ساقية سيدي يوسشف فضحت الاستعمار وجسمت وحدتنا " وفي افتتاحيتها كتبت بالبند العرض وتحت عنوان ذكي وديبلوماسي: "مسؤولية الأمم المتحدة في ساقية يبدي يوسف"، كما نشرت صورا مروعة عن الجريمة.في الصفحتين 1 و4.

[2]- ص،12.

[3]- في الحقيقة أن الصليب الأحمر الدولي كان قد أستدعي من قبل الثورة الجزائرية للقاء الجنود الأسرى الفرنسيين، وقد حضر إثنان منه عن طريق تونس رغم محاولة فرنسا عرقلة هذا المسعى، وصادف أن كانت أن أوصلت مساعدته ، ووجود إثنان من مسؤوليه يوم * فيفري بقرية ساقية سيدي يوسف، فكانوا شهود عيان للعالم، وتم فضح فرنسا وانقلب السحر على الساحر. أنظر ، **جريدة المجاهد**، العدد 17 بتاريخ 1-2-1958 ص، 6، 7.

[4]- هو الاسم الذي أطلقه المستدمرون أولا على المجاهدين التونسيين، ثم أطلقوه على الجزائريين. أنظر، إيفة، في الجزائر يتكلم السلاح، 12.

[5]- **نفسه**، 13.

وقد قامت بتوصيف لحالات اللاجئين في بعض المناطق الحدودية كعين دراهم التونسية حيث نصب مكتب الخدمات الاجتماعية

الحرب النفسية: لقد تفنن الفرنسيون في تعذيب الجزائريين كل التفنن، ولا ريب أن تأسيس هيئات مختصة بذلك تؤكد هذا فالمكتب الثاني، والمكاتب الإدارية المهتصة " لصاص" وغيرهما تدل على براعة الاستدمار وحقيقته، وإيفه بريستير نقلت بعضا منها مما رواه لها بعض اللاجئين من فضائع يندى الجبين وتتعدى حدود الجرائم البشرية، ونقتطف منها بعض الصور فيما يأتي:

1-رمى الفرنسيون أوراقا تهدد كل من يساعد " الفلاقة" المجاهدين بالويل والثبور، وبعد يومين قصفت إحدى القرى وقتل عدد من سكانها.

2- دخلت فصيلة فرنسية إحدى القرى، وجمعوا سكانها رجالا ونساء وأطفالا، وأخرجوا منهم ثمانية رموهم وسكبوا البنزين على الأكواخ بعد ما نهبوها، وأشعلوا النار فيها. قال الضابط لسكانها:" لقد اشفقنا عليكم، خذوا أطفالكم وانجوا بأنفسكم، وإذا بقيتم بعد عشر دقائق من الآن فلن يبقى أحد منكم على قيد الحياة[1].

3- اغتصب الجنود الفرنسيون بضع فتيات من هن واحدة في سن الرابعة عشر ربيعا، - بعد ذلك فر السكان - فرفضت الفتاة الذهاب مع والديها، فقد سئمت الحياة بعد وصمة العار التي أجبرت عليها ؟ ساقاها والداها بالقوة بقيت مدة ثم ماتت، لم تكن مريضة ولكنها كفت عن الرغبة في الحياة تعلق إيفة، وهو أيضا الوعي الذي تغلل

---

[1]- **نفسه**، 22.

في أوساط الشعب كبيره وصغيره، والموت من أجل الشرف أهون من البقاء وشرف الفتاة من شرف الوطن الذي ديس لمدة مائة وإثنين وثلاثين سنة.

وعن اللاجئين تقول إنه في الوقت الذي كان ديغول يتهيأ للمجيء إلى كرسي الحكم في فرنسا، توقع الجزائريون شرا من هذا الرجل وهو ما حدث بالفعل، فتدفقت أمواج أخرى منهم في الوقت الذي كانت تصل كل أسبوع بين الألفين وثلاثة آلاف أسبوعيا وذلك في الحدود التونسية فقط ومثلها تقريبا في الحدود الغربية[1].

ولا ريب أن الأمل في المستقبل كان يحدو هؤلاء اللاجئين مثل ما يحدو ذلك المقاتلين في الجبال لذلك عملوا على تعليم أبنائهم بما تيسر لهم من الوسائل، وقبل أن تعطي الكاتبة صورة عن الظروف المزرية التي يتم فيها ذلك قامت بمسح شامل ومختصر لوضعية التعليم خلال العهد الاستدماري في سياق تاريخي وسياسي جد هام انطلاقا من الكتب المدرسية التي ألفت للجزائريين لتحضيرهم بواسطة التعليم كما كان الاستعمار يدعي، منها كتاب " العربية بدون معلم"

وتعطي لمحة قصيرة عن طبيعة الاستدمار من خلال طبيعة المستوطنين، وطرق الاستلاء على الأرض، وطرد السكان الأصليين إلى الجبال بشتى الطرق والوسائل، وتقديم الأراضي الخصبة المستولى عليها لهؤلاء، وللشركات التي حولت إنتاجها الغذائي إلى إنتاج الخمور وبعض الزراعات الصناعية، وتقدم صورة رقمية تغني عن كل تحليل فإليكموها كما أوردتها ملخصة:" في سنة 1954 كان يعيش في الجزائر حوالي مليون

---

[1]- من الصعب قبول هذا العدد في ظروف الحرب والحصار، وفي الفنرة التي تم فيها إنجاز الخطوط المكهربة على الطول الحدود إلى غاية المكشوف منها عند بداية الصحراء أي المناطق العارية.
نفسه، 24.

من ذوي أصول أوربية، وأكثر من تسعة ملايين شخص من السكان الأصليين 80 % منهم يعيشون من الزراعة بينما يعيش منها 12 % من الأوربيين، ويمتلك 25000 أوربي 2.720.000 هكتار من أخصب ألأراضي، ويحوز الجزائريون 532000 فلاح جزائري أي عشرون ضعف عدد الأوربيين على 7.672.000 هكتار، أي ما لا يتعدى ثلاثة أضعاف المساحة، ومن هذه الهكتارات 2.720.000 الأوروبية يمتلك 900 شخص أكثر من مليون هكتار أي من المستوطنين الكبار، مقابل كل هذا هناك 625.000 عائلة جزائرية من الفلاحين لا تملك أي أرض مطلقا[1].

وهو ما جعل المستوطنين أسيادا والجزائريين عبيدا وأقنان أرض القرون الوسطى، ومن الكتيب السابق الذكر قدمت مثالا حيا على تجسيد سياسة العبودية واحتقار ما هو عربي جزائري يتمثل التوجيهات الاستدمارية التي تدور حول: ماذا يجب على المستوطن الجيد أن يقول للعامل العربي في وقت العمل، وففي هذا الكتيب يجد المستوطن الجمل المفيدة التالية:

- عليكم غدا الاستيقاظ باكرا.
- عليكم الخروج غدا بالقطيع قبل شروق الشمس، ولا تعودوا إلا بعد غروبها (وهذا يعني في الصيف عمل من ستة عشر ساعة).
- العمل لدينا يتواصل كامل اليوم .
- عندي، يجب العمل ست ساعت في الصباح وخمس ساعات في المساء (أي 11 ساعة في اليوم).
- متى يستيقظ عمالك ؟

---

[1]- **نفسه**، 37.

- إنهم يستيقظون قبل شروق الشمس بكثير.
- لقد حضرت إلى العمل في الساعة السادسة ، إنك متأخر جدا.

هذه الجمل والكلمات يتعلمه المستوطن بالعربية (العربية الدارجة) ليخاطب بها العامل الجزائري، وبعد أن يتأكد المستوطن من أن العامل قد فهم مراده قصد تنفيذه، يحفظ جمل أخرى وظيفية يتعلمها طبعا الطرفان المستوطن والعامل منها:

- أريد أن أخدمك يا سيدي .
- يبدو المستوطن سروره ويسأل: ماهي مؤهلاتك ؟
- أقدر على القيام بأعمال البيت
- أتستطيع الطبخ
- أجل يا سيدي إني طباخ.

أنها الحضارة العربية التي حملتها فرنسا لتعلم شعبا سلبه حريته بقوة الحديد والنار كيف يستعبد، وكيف يهان ويذل ؟

مدن الصفيح: فعن أسلوب البناء الاستعماري تعرضت إيفه إلى مدن التنك أومدن الصفيح وللأسلوب الذي دفع إليه الاستدمار السكان المحليين في المستعمرات منها الجزائر ، وبعد تقديم تعريف لها تخلص إلى القول بأنها يصعب تسميتها بالأكواخ لتراصها وانعدام المرافق الأساسية للحياة بها وتوجد حول كل مدينة إفريقية، ومنها المدن الجزائرية، وأن هذا الأسلوب في البناء (مدن الصفيح) أصبح لدى الفرنسيين مألوفا بل محببا وانتشر في فرسا في أكثر من 100 مدينة، وأسبابه سلب الأراضي، وتحول الفلاحين إلى عمال، ونزوحهم من الريف نحو المدن، ورغم أنها حاولت أن

تسوق الأحداث وفق التطور الذي حدث في أوربا من خلال الصراع بين الرأسمالية، والطبقة العمالية، فإنها تقدم صورة مأسوية للعامل الجزائري سواء في بلده أو في بلد الهجرة فرنسا حيث يستغل استغلالا بشعا " ففي سنة 1954 استثمر الفرنسيون في فرنسا 50.000 فرنك لكل شخص، أما في الجزائر فلم تتجاوز النسبة أكثر من 9400 فرنك، وحتى هذا المبلغ التافه استثمره الفرنسيون في تحسين وسائل الإنتاج في الأطيان الكبيرة، وفي تعبيد الشوارع وتوسيع المرافئ وفي الاستحكامات العسكرية والمطارات، وهذا خدمة لاقتصاد الأم فرنسا"[1]، وتخلص الكاتبة إلى نتيجة هامة هي :" أنه لا يستطيع – أي العامل الجزائري – فقط أن يجوع – إنه جائع فعلا"[2]، ومن صور التمييز العنصري، والتعذيب الممنهج نحو العمال الجزائريين بفرنسا فأهم الجزائد الفرنسية المحترمة بين قوسين " الفيقارو" و " أورور " تصور الجزائري على أنه " إنسان ناقص " مسؤول عن كل الدناءات ، وقد وجدت فتاة صغيرة مغتصبة ومقتولة في إحدى دور السينما، وبدون أدنى دليل، أعلنت الصحف المحلية الفرنسية أن القاتل لا بد أن يكون جزائريا وساهمت الشرطة في هذه الهستيريا"[3]، وتورد العديد من الأمثلة الحية في هذا السياق، فالفرنسيون لم يشنوا حربا على الجزائريين بالسلاح والرجال فقط، بل شنوا حروبا أخرى منها الحرب النفسية، وكان همهم الوحيد إيقاف مسار التاريخ! وهل التاريخ يعود إلى الوراء؟ والعجب كل العجب كيف يفكر الفرنسيون بهذا المنطق، في بلد الحرية والمساواة والعدالة، وفي بلد جان جاك روسو، وفيكتور هيقو، وجان بول سارتر فهل جنوا أم أعمتهم المصالح المتداعية ؟؟؟

---

[1]- **نفسه**، 52.
[2]- **نفسه**،53.
[3]-**نفسه**،63.

تمسك الغريق بالقشة: في هذا المعنى كتبت إيفة بريستير " حقيبة مدام ديبون– أو لماذا هي قصة جيدة "[1] وذلك تعبيرا عن الأوضاع الاقتصادية في فرنسا المتدهورة جراء إنفاقها على حربها في الجزائر، وهو ما عبر عنه الجنرال ديغول في مذكراته قائلا:" إن أقل شيء يمكن قوله هو أن الجزائر تكلفنا أكثر بكثير مما نربح منها"[2]، فكل شيء في فرنسا ارتفع سعره فالمواطن الفرنسي أصبح يمون الحرب من جيبه ومن فلذة كبده، وسياسيو أحزاب السلطة لا زالوا مصرين ويرددون " الجزائر قطعة من فرنسا ، مثلها مثل النورماندي وبريتاني، ويقولون :" لأن كل ما تتمتع به الجزائر من ثقافة وحضارة، إنما جاء به الفرنسيون، قبل ذلك لم يكن فيها سوى أناس متخلفين، فكيف تريدون منا أن نترك كل ما بنيناه هناك"[3] وعلى لسان السيدة ديبون وبأسلوب روائي يقول الفرنسيون:" لدي ابن عم وعائلته يعيشون في الجزائر، أتعتقدين أني أقبل بأن يذبحهم هؤلاء المسلمون المتطرفون ؟ أو لم يتركوا كل شيء ويعودوا كلاجئين إلى فرنسا (ويزيدون)، وعندما يعودون كلاجئين سنضطر إلى الاهتمام بهم، فكيف تريدين أن تعيش عائلتان أو ثلاثة في شقة مكونة من حجرتين؟"[4]، وهو الموقف النفسي الذي يحاول الساسة الفرنسيون، والإعلام الموجه شحن به الفرنسيين لتبرير الحرب في الجزائر، وحملهم على الانخراط فيها بالمال والرجال، ومن ثم ففرنسا مجبرة على البقاء في الجزائر لحماية شعب متخلف من الأذى الذي قد يلحقه بنفسه،

1- **القصة : "** مدام ديبون–اسمينتشر في فرنسا كانتشار اسم ماير أو شميدت في المانيا – ذهبت في يوم من أيام ربيع 1959 للسوق .إلا أن الربيع لم يحسن من مزاجدها العكر، فلم يكن في محفظتها إلا ألف فرنك، وهي تعلم أنها لا تسطيع إنفاق المبلغ كله، أو تستطيع إنفاقه دون أن تتمكن من شراء كل شيء هي بحاجة إليه ...."، **نفسه**، 70.

2- **مذكرات ديغول " الأمل والتجديد 1958-1962"**، ترجمة، سموحي فوق العادة، ومراجعة أحمد عويدات، (بيروت : منشورات عويدات،1971)، 117.

3- إيفة، في الجزائر يتكلم السلاح ، 73.

4- **نفسه**

ويجعل حتى الشرفاء من الفرنسيين الاقتناع بضرورة مساندة حرب لا يجنون منها سوى العوز والحرمان[1]،وتعود الكاتبة إلى التاريخ للعبرة والمقارنة وتقول : إن العرب الفاتحين هزموا السلطة القائمة (البيزنطية) لأنهم جلبوا معهم نظاما اقتصاديا جديدا أفضل من سابقه، وجلبوا كذلك الاعتراف بحقوق الإنسان منها حق المرأة، وتطرقت إلى تطور النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الجزائر في ظل الإسلام، وتخلص إلى المساعدات التي قدمتها إلى فرنسا ومسألتي الديون والمروحة وما نتج من غزو واحتلال، وتقول أن الحرب الاستعمارية هي أفضل مدرسة للديكتاتورية، وتذكر بجرائم فرنسا في الجزائر وقادتها ككافينياك، وسانت أرنو، ومحاولة مصادرة المحاكم الشرعية، والمساجد، وإثقال كاهل السكان بالضرائب، وتخلص إلى استنتاج هام قائلة:" ولكن في أيامنا هذه، انتهت فترة النوم البائس للشعب الجزائري، فحتى المقابر في الجزائر لم تعد تطيق الصمت "[2]

النهضة وبداية الحركة الوطنية:باعتبار أيديواوجية الكاتبة تعيد نشأة الحركة الوطنية إلى الحركة العمالية، والمسيرة التي قطعها العمال الجزائريون، وتحدد عام 1926 تاريخ تأسيس نجم إفريقيا في باريس لانطلاقها، نتيجة المسيرة التي قطعها العمال الجزائريون، وحاولت إبراز دور الأحزاب الجزائرية من خلال حزب الشعب الجزائري سليل النجم، والحزب الشيوعي، وجمعية المسلمين الجزائريين مركزة على المؤتمر الإسلامي سنة 1936.

دخلت الجزائر الحرب العالمية الثانية بالرغم عنها، والتي وإن انتهت بمأساة 8 ماي 1945 لكنها أفادت الجزائريين في التدريب على الطرق والأساليب العسكرية، وتتساءل عن الأسباب التي أدت بالمستوطنين إلى مكافأة الجزائريين بهذه المجزرة

---

[1]- **نفسه، 74**

[2]- **نفسه، 86.**

الفظيعة،وتقول : السبب واضح : لم يكن أكثر المستوطنين الكبار قادرين على التصرف بشكل مباشر، كما يشتهون، لأنهم كانوا في موقع حرج بسبب دعمهم لبيتان والفاشية الألمانية والإيطالية[1]، وتنهي حديثها بقول ماركس الذي قال:" الشعب الذي استعبد الشعوب الأخرى، لا يمكن أن يكون حرا" ثم خلصت إلى النتيجة الآتية:" وانطفأ النور الذي شع سنة 1945 على فرنسا، وبدا واضحا أن الصباح لن يغني أبدا، وذهبت أوهام الجزائريين[2] بعد مجزرة قسنطينة[3] إلى غير رجعة، واحتاج الأمر لتسع سنوات كي يبدأ الشعب الجزائري ثورته المسلحة، مع أن القرار تم اتخاذه قبل ذلك، في صباح الثامن من أيار/ مايو في سطيف[4].

فترة الهدوء الذي يسبق العاصفة (1945- 1954) أو شاب يصل إلى القرية:

بهذا العنوان الأخير استهلت الكاتبة حديثها عن هذه الفترة، وانطلاقها من رسالة 8 مايو 1945 الواضحة، فعرجت على الانتخابات والتمييز العنصري فيها، وظل المستوطنون يعرقلون كل عملية ديمقراطية من شأنها تمكين الجزائري ولو من أدنى الحقوق، وفي هذا الشأن نقلت الكاتبة عن النواب الفرنسيين المنتخبين في الجزائر ما كتبه في إحدى جرائد باريس سنة 1947:" لقد أكتفينا من هذه القصة السخيفة حول حق الانتخاب للمحليين، يجب إيقاف هذه المهزلة . فنحن لا نحتاج إلى حكومة غارقة في المشاعر الرقيقة، بل إلى رجال قادرين على فرض احترامنا، وذلك بإظهار قبضة قوية واستعمالها وقت الحاجة، لقد خرجت سنة 1936 مشروع بلوم

---

[1]- **نفسه**، 99.

[2]- في الحرية والانعتاق التي علقت الآمال على تحقيقها من الوعود الكاذبة التي قدمتها فرنسا، والحلفاء.

[3]- أي مقاطعة قسنطينة أو الشرق الجزائري خاصة قالمة وخراطة.

[4]- إيفة، في الجزائر يتكلم السلاح، **102.**

فيوليت، فكلما أعطى المرء العرب شيئا، أرادوا الحصول على أشياء أكثر"[1]، ثم تعرض بالأرقام تزوير انتخابات 1948 من طرف الحاكم العام نايجيلين.

وتعقد مقارنة بين الجنود الفتناميين والجنود الجزائريين وفرار الجنود الجزائريين من الجيش الفرنسي في حرب الفيتنام، ونصيحة الفتناميين للجزائريين بعدم الفرار واكتساب الخبرة والعودة للجزائر لبدء النضال، ولا يخلو هذا الموضوع من بعض الإسقاطات الأيديولوجية كاستخدام مصطلحات البورجوازية، والإقطاعية، والطبقة الوسطى، والطبقة العمالية؟

الجزائر الساعة صفر: تعود الكاتبة إلى الأرقام المذهلة التي ستحدد مسار الفترة ونهايتها الحتمية وهي الثورة العارمة، وتذكر أنه في سنة 1945 كان في الجزائر مليون ونصف من العاطلين عن العمل، ولما كانوا لا يتلقون أي إعانة من السلطة الاستدمارية كان محكوم عليهم مع عائلتهم بالموت أي حوالي أربعة ونصف المليون، فامتلأت السجون، وراحت السلطة تدبر المؤامرات السياسية تلو الأخرى، وهو ما عبر عنه عباس فرحات سنة 1953 حيث قال :" يبدو اليوم واضحا أن حزبا ثوريا، يناضل من خلال القانون، لن يجد أي مجال للاستمرار في العمل"[2]، والفرنسيون لم يولوا اهتماما للوضع الاقتصادي المنهار، وكانوا يعتقدون أن الجوع سيضعف من الجزائريين ويملأهم يأسا ويعودون غير قادرين على المقاومة، فالجوع في اعتقادهم إذا ما استمر لمدة طويلة هو أفضل وسائل التهدئة[3]، مطبقين المثل" جوع كلبك يتبعك "، ويبين هذا التفكير كيف أن الفرنسيين أصبحوا غير قادرين على النظر إلى الأمام بل فقط

---

[1]- **نفسه، 109.**

[2]- **نفسه،** 122. = عباس غرحات زعيم سياسي، وكاتب مدقق، وأول رئيس حكومة الثورة الجزائرية التي تكونت في القاهرة سنة 1958.

[3]- **نفسه،** 123.

إلى الخلف، " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ "[1].

وقد بدأت تباشير الثورة تلوح في الأفق من خلال بعض العمليات كالهجوم على بريد وهران، كشكل من أشكال جمع المال الذي ما رسته كل التنظيمات الثورية في العالم، ثم تأسيس" اللجنة الثورية للوحدة والعمل" التي تطورت إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وترددت الشائعات أن الجيش الفرنسي المهزوم في الفيتنام سيقوم بمجازر في الجزائر[2]، وفي خضم هذا كله دقت ساعة الصفر معلنة اندلاع ثورة التحرير، ولم يهضم كبار ساسة فرنسا حركة التغير، ولم يفهموا أن عجلة التاريخ قد دارت ولا سبيل لإيقافها، فعبر عن ذلك وزير داخليتها ميتران قائلا:"الجزائر كانت وستبقى فرنسية، فمن الفلاندر حتى الكونغو ليس هنالك سوى أمة فرنسية واحدة، إنه دستور وإرادة فرنسا "[3] كما كانوا يرددون، ولكن هيهات هيهات فالأمر قد فصل، والقرار اتخذ، والحرب قد بدأت، والثورة انطلقت.

وحاول الفرنسيون والمعمرون ثني الجزائريين عن قرارهم بإخافتهم، والحقيقة ما استعمروا واستعبدوا الشعب الجزائري إلا بالخوف والإرهاب:" لقد سار المستوطنون في شوارع المدن الجزائرية في سنة 1955 – كما تقول – دافعين أمامهم بالأسرى الجزائريين المكبلين النازفين، والذين علقت في أعناقهم لافتة مكتوب عليها " أنا المجرم كنت أساعد الفلاقة "، وفي أحيان كثيرة ساروا جارين بغالا ربطت إلى ظهورها جثث شباب

---

[1]- **الحج**، 46.

[2]- في الحقيقة لم يكن ما حدث في الفيتنام هو الذي اقتدى به الجزائريون إنما التأثير كان من خلال مشاركة الجزائريين رغما عنهم في حرب الفيتنام فاكتسبوا الخبرة العسكرية التي أفاد بها الثورة ممن التحقوا بها.

[3]- إيفه، في الجزائر يتكلم السلاح ، 130.

عرب مع الكلمات المعبرة" لقد قاتلت ضد فرنسا، إنذار إلى من يتشبه بي " وبكل فخر كان المستوطنون يقبلون بتصويرهم بالقرب من هذه الجثث"[1].

ومن أول يوم للحرب بدأ الأحرار الفرنسيون يرفضونها من ذلك تمرد المجندين من السفر إلى الجزائر، والفرار من الجيش الفرنسي والانضمام إلى جيش التحرير من ذلك الضابط "مايو الذي فر في مارس 1956 والتحق بجيش التحرير، وإن كانت الكاتبة تجعله من الشيوعيين ؟ وقد كتب مايو هذا الذي اتهمته الصحف الفرنسية بالخيانة قائلا:" عندما ينتفض الشعب الجزائري ضد الاستغلال الاستعماري فإن مكاني هو إلى جانب هؤلاء الذين يمارسون حرب التحرير... وعندما أقدم السلاح إلى المناضلين الجزائريين، أعرف تماما أنني أخدم وطني، وكل عمال أوروبا المخدوعين"[2]

ربع ساعة المميتة: بعد أن تلقي نظرة على الرافضين والمؤيدين للمفاوضات مع الجزائريين، وبعد اختطاف طائرة قادة الثورة، وازدياد خطب غي مولي أعلن لاكوست الربع ساعة الأخير من الحرب في 2 نوفمبر 1956، ولكن الربع ساعة امتد حتى 1959 كما تقول وهو تاريخ نشرها للكتاب، بل امتد حتى 1962 .

ويتسلم جنرال المظليين ماسو قيادة الحرب ضد السكان وهو المعجب بهتلر وموسليني، وألقى عدة محاضرات مدح فيها " الحرب البسيكولوجيا، وفي كتيبات وزعت على جنوده تشرح أساليب الحرب النفسية" البسيكولوجيا " على النحو الآتي:

- خوض الحرب في الجزائر يعني أن تكون مدمرة ومهدئة في الوقت نفسه.

---

[1]- **نفسه**، 138.
[2]- **نفسه**، 148.

- كن حذرا في كل مكان، فالكمين هو السلاح رقم واحد لرجل حرب العصابات.
- يجب تنفيذ العمليات التالية: زيارة كل قرية بشكل دوري وتدمير المجموعة الإرهابية المحلية، لمنع المساعدات للعصابات، وحماية العناصر السليمة من تأثيرهم الضار .

وقام رجال ماسو بتنفيذ خططه في عزل بيوت منفردة واقتحامها، بل عمدوا إلى نسف تجمعات سكنية بأكملها مع سكانها، وهو أمر حدث عدة مرات في الجزائر، وفي المقابل تنوعت عمليات جيش التحرير الجزائري وامتدت، ووصل تعداده إلى أكثر من 10000 مقاتل عام 1956، وتحسن تسليحه، في حين ارتفع عدد الجيش الفرنسي إلى نصف مليون سنة 1957[1]،

لقد بلغ التهور بجنرلات فرنسا منهم ماسو الذي يردد بعد مشاركته في الاعتداء على قناة السويس بمصر سنة 1956 أنه كان يستطيع احتلال مصر في 14 يوما، واعتقال جمال عبد الناصر، وتهدئة كل شمال إفريقيا لو لم يضرب من الخلف، ويتابع ضباط فرنسا هذيانهم الجنوني، وحماقتهم غير المحسوبة، فيقولون بعد استقلال المغرب وتونس اللتان أصبحتا خلفيتان للثورة الجزائرية :" هذا لا يحتمل، كيف نستطيع ضرب المتمردين إذا كانوا ينسحبون بعد كل عملية إلى الأراضي التونسية أو المغربية، يجب علينا أن نتبعهم، علينا احتلال المغرب وتونس، عندها تتوقف الحرب، بالتأكيد في الجزائر، وأعلن الجنرال ماسو أنه سينتقل إلى تونس وسينام منتعلا حذاءه في سرير

---

[1]- **نفسه**،162

بورقيبة"[1]، وهو ما طبق على قرية ساقية سيدي يوسف، وقد زار المنطقة الحدودية الحاكم العام الاشتراكي لاكوست قبل يوم من بدء الهجوم وصرح قائلا: " المعركة على الحدود يجب أن تكسب"[2]، وهذا بعد أن بدأت تظهر أهمية بترول الصحراء الجزائرية، وتتعرض الكاتبة لهذا العنصر الجديد في الحرب بشيء من التفصيل يفضل الرجوع إليه، أو أن يخصص له موضوع لدراسته دراسة وافية.

وتنهي حديثها في هذا الموضوع بالقول لقد استمرت الحرب بعد موت الجمهورية الرابعة، وماتت الجمهورية الرابعة مرتين بسبب قمعها للشعوب الأولى في الفيتنام وسلمت نفسها إلى الأمريكيين وجنرلات الناتو، والثانية في الجزائر وسلمت نفسها إلى المستوطنين[3].

ألا يتجلى ذلك في رد تلك المرأة الجزائرية البسيطة الأمية التي كانت تسكن كوخا من القرون الخوالي عندما سألها الضابط الفرنسي الذي كان يقود وحدة عسكرية : أين ذهب زوجك ؟ فقالت دون أي عناء : ذهب إلى الجبل ليحررن ويحرركم؟ فما كان من الضابط الذكي إلا أن عاد بوحدته، وقدم استقالته وعاد إلى فرنسا قائلا: لقد انتهى كل شيء، وانتهى الوجود الفرنسي في هذه البلاد، لقد تحررت الجزائر؟[4] آه لو كان للساسة والضباط الفرنسيين عقل مثل عقل هذا الضابط لوفر على فرنسا جهد سبع سنوات ونصف، وآلاف الضحايا ، وخسائر تعد بالملايير، وعلى الجزائريين التدمير وأكثر من مليون ونصف المليون من الشهداء، وآلاف المشردين.

---

[1]- **نفسه**، 165.
[2]- **نفسه**، 266.
[3]- **نفسه**،175.
[4]- أنظر مقابلتنا مع بعض قادة الثورة، المنشورة بمجلة " المجاهد الأسبوعية ، أكتوبر سنة، 1982.

لكن ماسو يواصل الحرب في الجزائر، فيقود العمليات الكبيرة بنفسه ففي أكتوبر ونوفمبر من عام 1958 يقود في منطقة القبائل العملية معلنا أنه سيحتل أهم مناطق المتمردين ويهدئها، ويطلق في مدة أسبوع 4600 طلقة مدفعية، ويتم الجزمان المحصنان على الحدود المغربية والتونسية (خطي شال وموريس)، ويجلى عن هاتين المنطقتين حوالي 400000 نسمة، وقتل فيهما أكثر من 200000 شخص، ولكن كل هذه الأعمال الوحشية لم تكن عائقا للثوار بالرغم من أنه صعب من مهمتهم[1].

المرأة والصحة: لقد اندهشت الكاتبة لصبر المرأة الجزائرية وإصرارها على التحرر ووقوفها إلى جانب المقاتلين مقاتلة ومساعدة، كما أعجبت بأخلاقها وأخلاق الجزائريين عموما فقالت عن المرأة:" لم اسمع خلال إقامتي التي استمرت شهورا لدى الجزائريين – أي اللاجئين في تونس – تعبير بذيء أو نكتة وقحة ملاحظة يمكن أن تكون سمجة في آذان النساء "[2]، وتقول أيضا:" فالمرأة الجزائرية تشارك في الحرب، وتحصل بعد التحرير على كامل المساواة مع الرجل، فإذا كنا نقاتل الاستعمار والقمع فلن نسمح لأنفسنا بأن نكون مع استغلال وقمع المرأة . أما بالنسبة لقمع المقاتلات فإنه غير وارد إطلاقا"[3] و" رغم أن الناس هنا يحبون الشجاعة إلا أنهم لا يرغبون بالتصرفات الطائشة التي يكون لها أسبابها الشخصية"[4] .

أما عن الوضع الصحي فهو مزري للغاية بين اللاجئين، ورغم ذلك فقد اجتهدت قيادة الثورة في هذا المجال، فجبهة التحرير تملك مستشفى خاصا بها وصيدلة وإن

---

[1]- إيفه، في الجزائر يتكلم السلاح ، 174.
[2]- **نفسه**، 182
[3]- **نفسه**، 192.
[4]- **نفسه**، 189

كانت صغيرة، وتعود إلى الدراسات الطبية في الجزائر خلال العهد الاستعماري المتدنية جدا، وإلى تقنين المواد الطبية والغذائية في الجزائر لمحاصرة الثوار من ذلك حتى الحليب المغذي للأطفال، وعُدت مساعدة الثوار هذه جريمة ففي عام 1958 طرد عدد من الرهبان كانوا بدير سوق أهراس لأن السلطات اشتبهت بأنهم ساعدوا بعض الثوار المرضى[1]، وهو الأسلوب الذي طبقته وتطبقه إسرائيل على الفلسطنيين، وبعض الأنظمة العربية ضد معارضيها. والكاتبة تقدم صورا حية كثيرة يحسن الرجوع إليها في مكانها من الكتاب.

مليكة والجنة (التعليم): اختارت الكاتبة هذا العنوان لتعبر به عن دور المرأة كممرضة إلى جانب الجنود في ميادين القتال، والدور الذي لعبه الطبيب والممرض وبالرغم من نقص وفقدان كل الوسائل والإمكانيات الطبية لمعالجة الجرحى خاصة والمرضى عموما، كما تحدثت عن حرب الكمائن، وإشراف المسؤولون السياسيون على تسيير شؤون الشعب اليومية من خلال القضاء، والتعليم، ففي سنة 1956 طلبت جبهة التحرير من المعلمين في المدن الانتقال إلى الجبال، ليس لحمل السلاح بل للتعليم، والتدريس في مدارس القرى حيث كان يتم بلغتين في الصباح الفرنسية، وبعد الظهر العربية أو العكس"[2] إننا – تقول مليكة للكاتبة –نخوض الحرب ضد فرنسا، ولكن ليس ضد الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية"[3].

---

[1]- **نفسه**، 197

[2]- ربما كان هذا في المدارس الحدودية، وفي النواحي كتعليم الطب في الجبال حيث الطب كله كان بالفرنسية والذين التحقوا بالثورة سواء كانوا من الأطباء أو الممرضين كانوا قد تخرجوا أوندربوا في المعاهد الفرنسية وباللغة الفرنسية.

[3]- **نفسه**، 208 = قد يكون هذا موقف شخصي فكيف يقال هذا الكلام ، وقد حاول الفرنسيون طيلة قرن وربع مسخ الثقافة الجزائرية وكل مكونات الشخصية الوطنية.

وما قالته عن الصحة والتعليم صحيح بنسبة 90 % أما 10 % ففيه نظر، وفيه بعض الخيال القصصي أو الروائي، ولاندفاع العاطفي فلا بد من تحقيقه.

والمدارس – وهي عبارة عن أكواخ معلموها حفظة القرآن الكريم – التي أنشئت تصبح في عهدة لجان الخمسة[1] التي يدعمها الجيش وقت الحاجة.وتتعرض إلى جهاز الحراسة الذي يقوم به المواطنون بالتنسيق مع وحدات جيش التحرير لاسيما في المناطق المحررة وتسميها فرنسا المناطق المحرمة، وكان الجيش الفرنسي يقوم من حين لآخر بعمليات تأديبية عسكرية ضد القرى الواقعة على أطراف هذه المناطق، فيحرق ويدمر ويقتل ويحبس، ولكن المواطنين وبمساعدة جنود جيش التحرير يعيدون بناء ما تهدم لأنه بسيط إنها أكواخ.

حرب الأكواخ الثائرة أقوى: تقول الكاتبة أن الحرب الدائرة في الجزائر هي حرب الأكواخ الثائرة ضد القصور، ويبدو واضحا أن الأكواخ أقوى، والحقيقة أن الحرب هي حرب كرامة وحرب شعب سلبت منه سيادته وحريته وكرماته منذ 1830 .

في القصور ينام ساسة فرنسا وقادتها ويخططون، وفي الأكواخ ينام قادة الثورة وسط الجماهير ويخططون، لقد ظهر للعيان بعد سنوات من الحرب أن سكان الأكواخ كانوا هم أصحاب الأمر النافذ وليس أصحاب القصور. هذا الادعاء نورده – كما تقول الكاتبة – ولدينا الأمثلة على صحته : في أواخر خريف 1958 قررت الحكومة الفرنسية أنه ينبغي على الجزائر أن تشارك في الانتخابات الفرنسية لاختيار أعضاء البرلمان، وقررت ضرورة ترشيح عدد من المسلمين في كل الدوائر الانتخابية الجزائرية

[1]- تنظيم صادر عن وثيقة الصومام سنة 1956 ، يحسن الرجوع إليه في العديد من المراجع وفي المواقع الإلكترونية من خلال الأنترنت.

أملا في فتح مفاوضات مع ممثلي الجزائريين في البرلمان الفرنسي هذا بعد انقلاب 13 مايو 1958 ومجيء ديغول الذي اتعبته حرب الجزائر وكان الأمل هو تحرير فرنسا من حرب الجزائر[1]، وبعد استعراض الخلفيات السياسية لذلك منها تأييد الحكومة الأمريكية للسلام الديغولي، ورغم ما بذلته السلطات الفرنسية العسكرية والمدنية من جهود لاسيما استعمال القوة في إجبار الناس على التصويت، فكان الامتناع عن الانتخابات بنسبة أكثر من 70 % فانتصرت الأكواخ[2] .

المجاهد: تقول الكاتبة : يحارب اليوم 150،000 مقاتل – مجاهد – في صفوف جيش التحرير الوطني الجزائري 150 ألف فلاح وعامل زراعي، ومعلم ونقابي وطبيب وموظف وعامل وطالب وعاطل عن العمل كلهم " مجاهدون حتى تحرير تراب الوطن من رجس الاحتلال الفرنسي" 150 ألف مجاهد أو كما يدعوهم الفرنسيون " فلاقة " و " خارجين على القانون "

سلاح المجاهد اليوم هو الرشاش بشكل عام، وعندما يتطوع الجزائري في الجيش يحصل على كتيب ملفوف بقطعة من القماش يزين غلافه العلم الأخضر والأبيض والهلال والنجم الخماسي وهو ما يدعى " كتاب المجاهد " محتواه واجبات وحقوق المجاهد، وتتعرض لقضية التسليح التي تتنوع مصادرها مما خبأه الجزائريون قبل انطلاق الثورة سنة 1954، ومن الفرنسيين أنفسهم بشتى الطرق منها ما يغنم أثناء المعارك، ومن الفرق التي كونها الجيش الفرنسي لمساعدته في حربه على الثوار، والذين يلتحقون بعد ذلك بأسلحته بجيش التحرير، وتبين ما يعانيه المجاهد في الجبال، والكتيب يوضح

---

[1]- **نفسه**، 230

[2]- **نفسه**، 340

للمجاهد كيفية علاجه " بعد مسيرة طويلة، يجب غسل القدمين بالمياه الساخنة، إذا لم يكن ذلك ميسرا تنظيفها بقطعة قماش قطن " بالدير ماسيد "، والتجفيف بواسطة البودرة[1]، وتواصل شرح ما جاء في كتيب المجاهد لاسيما في مجال الاتصال والإعلام. وتقدم نموذجا عن الحياة اليومية لقائد، وتعود إلى تصريحات القادة الفرنسيين التي ظلت حبيسة الماضي، ورهينة المصالح تسخر من الجزائريين دون أن تفهم أن العالم تغير تقول بعض الآراء :" إذا لم يعمل البرنس – أي الجزائري – لمصلحتنا فمن الأفضل له ولنا أن يموت " [2]، وحاولت في الفصول الأخيرة إبراز دور العمال ويتوافق ذلك مع توجهها الأيدولوجي، وكدليل على ذلك ننقل عنها فقرة من الحوار الذي أوردته :" إذن أخبري عمال الدول الاشتراكية شيئا عنا " و" الفلاحون أيضا " و " كذلك الفلاحون، قولي لهم أننا ذاهبون الآن إلى الجبهة، وعندما يذهب الجندي إلى الجبهة لا يعرف إذا كان سيعود، إذن قولي لعمال وفلاحي الدول الاشتراكية أننا فكرنا فيهم قبل ذهابنا إلى الجبهة، وأننا نعلم أنهم اصدقاؤنا، وأننا نحن أيضا أصدقاء لهم " قد ينسجم هذا مع الفكر التحرري عموما، ولكنه لا ينسجم مع فكر ومنطلقات الثورة وأهدافها وخصوصياتها. وتتعرض إلى خطي موريس وشال في الحدود الشرقية للجزائر، وتقدم نماذج عن تفنن الجيش الفرنسي في قتل وتعذيب الجزائريين وإرهابهم نفسيا في قرية موريس (تسمى اليوم ابن مهيدي) وعند الظهر، أجبروهم على النزول من الشاحنات والوقوف في صفين، ثم أخرج الجنود الأهالي من بيوتهم ودفعوا بهم نحو الساحة، يجب عليهم المشاهدة والتعلم قالوا لهم، ووقف صف من الجنود الفرنسيين أمام المئة والعشرين، وجاء الأمر، وبدأت الرشاشات بإطلاق نيرانها، سقط الصف الأول ثم تبعه

---

[1]- **نفسه**، 250

[2]- **نفسه**، 266

الصف الثاني من الجزائريين، بعض الذين بقوا على قيد الحياة تلقوا رصاصة الرحمة من الجنود، بعدها ألقى النقيب خطبة أعلن فيها أنه سيعامل كل أعداء فرنسا على هذا الشكل، وأردف قائلا:" تستطيعون الآن أخذ موتاكم لدفنهم "[1].

وقد تمسك الفرنسيون بالجزائر خاصة المستوطنون، وقادة الجيش خوفا على امتيازاتهم، فصبوا جام غضبهم على المواطنين العزل، وعلى كل من وقع في أيديهم من المجاهدين، وخوفا من أي اتفاق يتم بين حكومتهم والفلاقا كما كانوا يعبرون قد يجبرهم على الاختيار بين " التابوت والحقيبة " أي الموت أو مغادرة الجزائر، فإرهابهم أصبح مرضا نفسيا لهم. أصبح يطاردهم في اليقظة والنوم ومحتوى أحلامهم، لاسيما وأن جنرلاتهم كانوا يتباهون بإرهابهم وجرائمهم فهذا الجنرال ماسو يقول حول تدمير القرى وتعذيب السكان:" الظروف الموضوعية.تحتم على جيشنا في الجزائر، اعتماد هذه الأساليب الضرورية والتي يجدها ضميرنا مقبولة معنويا "[2]، وقدمت إيفة برستير بعد ذلك صورا حية عن تعذيب الجزائريين والمذابح التي أقامها الجيش الفرنسي منها أجبار السكان على المرور أمام جثث الجنود الجزائريين المقتولين، والانتقام الجماعي من السكان، وقد التقت بعدد من المسرحين الذين أفادوها بعينات هامة وخطيرة عما يحدث في معتقلات العدو وسجونه من ذلك : " في معسكر تابلاط مئة وخمسون سجينا يستجوبون على هذا الشكل: شحنات كهربائية في الآذان والأعضاء التناسلية ، يتركونهم في قفص من الأسلاك الشائكة في الشمس، يربطونهم عراة بشكل دائري حول عمود، ثم يضربونهم بسوط من عصب الثور، يحشرون أيديهم في الباب ويقفلونه

---

[1]- **نفسه**، 293

[2]- **نفسه**، 296

عليهم"[1]، وتمتد حمى الإرهاب الفرنسي والتعذيب إلى فرنسا نفسها، ففي تشرين الثاني / نوفمبر سنة 1958 ألقي القبض على مجموعة من الطلاب الجزائريين الذين يدرسون في فرنسا، وتم التحقيق معهم في المركز العام للشرطة نفسه نفسه، في شارع دي سوسي، وتقدم شهادتهم عما جرى لهم من تعذيب إلى أن دخل بعضهم المستشفى، وقد استخدموا نفس الوسائل والأساليب التي تطبق في الجزائر من كهرباء وماء وضرب...[2]

وتكتب تحت عنوان " **القسم المكسور** " أن المستوطنين والضباط الفرنسيين بلغ بهم الفشل في القضاء على الثورة أو حتى التخفيف من وطأتها أن راحوا يصرحون أنه توجد طريقة سهلة للغاية :" لفرض الهدوء في الجزائر، يجب علينا أن نجمع في صبيحة يوم جميل، كل السياسيين الجزائريين، ونشطاء النقابات والمثقفين ثم نرميهم بالرصاص، ويؤكدون بطيبة خاطرن أن الفلاح العادي، العربي، كان دائما راضيا بالظروف السائدة، ولكنهم" حرضوه " وعندما يختفي المحرضون من وجه الأرض سيعود الفلاح إلى ارتياحه وإلى إخلاصه لسيده الطبيعي أي المستوطن، وتعلق الكاتبة على هذا بقولها " هذه الأحلام الدموية ليست جديدة، فهي أمال يحاول كل الرجعيين أن يروحوا بها عن أنفسهم عندما يواجهون شعبا يقاتل"[3]، لقد مات هؤلاء بل حكموا على أنفسهم بالإعدام بعد أن سجنوا أنفسهم في أحلام الماضي الذي لم ولن يعود، إنهم أغبياء، ويصدق فيهم قول الجنرال جياب بطل ديان بيان فو في الفتنيام " الاستعمار تلميذ بليد لا يفهم الدرس، أولا يستفيد منه "في معناه.

---

[1]- **نفسه**،311
[2]- **نفسه**، 313
[3]- **نفسه**، 316

وتنهي الكاتبة كتابها بموضوع عنوانه " **ما كارنكو تحت النخيل**" وهو عبارة عن استنتاج هام خرجت به فقالت في صدره:" إنه رغم الإرهاب والتعذيب والقتل، تنمو اليوم جزائر جديدة، وأن الإنسان الذي يخوض حربا لتحرير نفسه أنما هو أقوى من الحرب والقمع، وأنه على أرض الجزائر المروية بالدماء تنمو اليوم شجرة الحرية والإنسانية، أننا نرى هذا في كل كبيرة وصغيرة، ولن أشعر أنني أكملت واجبي إذا لم أخبر عن كل شيء حتى القضايا الصغيرة منها"[1] .

وتتوجه إلى القارئ وإلى الشعوب الأوربية في أوربا الغربية خاصة وتطلب منه أي القارئ أن يقرر من هو المحق، وهو الهدف من عملها هذا باعتبارها صحفية، وبعد أن تعود إلى الوضع المزري للشعب الجزائري، والوضع الغذائي على الخصوص التي قدمت عنه أرقاما وأمثلة مرعبة، وتتوقف عند الوعي الكبير الذي أحدثته الثورة والتغيير الإيجابي، وعلى لسان أحد الجزائريين عبد القادر:" أتعلمين ما الذي يدهشني؟ أيه الغرابة في عدم شكواهم من قلة الطعام، ففي كل اجتماع يبدأون في الاحتجاج : لماذا لا يأتونا بدفاتر أو لماذا لا يأتونا بكتب، أو لماذا لا نحصل على أوراق ملونة، فنحن نريد أن نصنع مسرحا للدمى ؟ ولكن لم يقل أحدهم أبدا: ليس لدينا شيء نأكله"[2].

وتختم إيفة بريستير كتابها الرائع والعلمي الدقيق ذو المنهجية الراقية بالحديث عن الأطفال والتعليم فإنها تنظر إلى المستقبل الذي تم تقريره بالتضحيات الجسام، وأنه في شبابها المتعلم، وتقول :" ولكن أمامهم تقف الجزائر، أرضهم . أمامهم السلم . السلم

---

[1]- **نفسه**، 329
[2]- **نفسه**، 336

الذي سيأتي، فمئات البنادق بدأت تتكلم ولن تصمت إلا بعد الحصول على الحرية، السلم الذي سيأتي لأن الإنسان كان أقوى من العبودية.

رغم أن السلاح لا يزال اليوم يتكلم في الجزائر، فلن يستطيع أحد أن ينتزع صورة مستقبلها الزاهر من عيني"[1].

[1]- **نفسه**، 350